زمن الاشتباك...

في ١١ تموز ١٩٨٦، طالعتنا الصحف بنبأ عمليةٍ نوعيّة جديدة ضد العدو الصهيوني قامَ بها مقاتلون شبّان ينتمونَ إلى «الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين» و«الحزب السوري القومي الاجتماعي». وفي حين ادّعى العدوّ أنّ المقاتلين فشلوا في الوصول إلى مستوطنة نهاريا، أكّدت «جبهة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة» التي ينتمون اليها أنّ زورق الأبطال استطاع الوصول إلى المستوطنة، وانّهم اشتبكوا مع العدوّ يوماً وليلة. وأيّاً ما كانَ الأمر، فقد اعترف العدو بأنّ القضاء على «المخرّبين» استغرق ثلاث ساعات، وأنّ قتيلين من جيش الدفاع وتسعة جرحى أُصيبوا في العمليّة البطوليّة. وكتبَ مراسل صحيفة «النيويورك تايمز» من تل أبيب يقول: «لعلّها العمليّة الأجرأ منذ عامينْ ونيّف». أما صحيفة «النيويورك بوست» فقد نشرت صورة المقاتلين الشهداء على صفحتها الأولى وعلّقت بشماته قائلة: «إنّها الصيحة الأخيرة للفرقة الانتحاريّة».

وفي ٢٢ تموز ١٩٨٦، طالعتنا الصحيفتان عَيْنهما بصورةٍ للملك الحسن الثاني وأُخرى لشيمون بيريز، وبنبأ اجتماعهما في ايفران. وسردت «النيويورك تايمز» مسلسل اللقاءات «السرّية» التي عقدها الحسن مع كُلٍّ من بيريز ورابين ودايان طيلة السنوات الثماني الماضية. وتساءلت الصحيفة ـ بشماتةٍ هي الأخرى ـ عن سبب عدم وجودِ أيِّ علمٍ إسرائيلي في الرّباط «خلافاً لما حدثَ في مصر يومَ زارها بيغن». لكنّها عادت لتؤكّد أنّ «الشعبَ المغربي» يؤيّد السلام ويدعم الملك الحسن رئيس المؤتمر الإسلامي والقمّة العربيّة، والزعيم الأنيق «الذي لاحقَ الفتيات ولاحقنه» عندما كان في شرخِ الشباب.

خليل خطّاب، محمد قناعة، عبد الله الشهابي، وعبد الهادي كاظم، أعضاء «مجموعة الشهيدين محمد سليم وغسّان كنفاني»، ثلاثة فلسطينيين وسوري يرفعون أيديهم المتشابكة في الهواء، ثلاثة منهم يحملون «كلاشنكوفاً» حديدياً أخمص، فيما يُعَلِّق محمد على رقبته سلاحَ الديكتريوف المتوسّط ويتقلّدُ «شرشور» الديكتريوف الطويل.

الرئيس حُسني مبارك ينفي علمه بالزيارة، وكذلك تفعل أميركا. لكنّ مبارك ووزارة الخارجية الأميركيّة يُرحبّان «بأوّل» زيارة (علنية) قام بها رئيس وزراء صهيوني إلى بلدٍ عربي بعدَ رحلة بيغن إلى مصر. فالمطلوب تحريك السلام في الشرق الأوسط، والمطلوب تسوية بيت «شعوب» المنطقة كُلّها، والمطلوب الحَدُّ من خطر الإرهاب على الدول المعتدلة ودول العالم الحرّ.

شهداء ليل ٩ ـ ١٠ تموز، ولقاء ٢٢ تموز، أسلوبان في التعامل مع «إسرائيل» وأمريكا؛ وأسلوبان في فهم قضيّة الوحدة بينَ العَرَب.

* * *

لا وقت للمقارنة، ولا نفع للموضوعيّة!

لشدّ ما أحسست بالزّهو وأنا أقرأ وقفتكم البهيّة كأجمل ما يكون العزّ. لشدّ ما حستُ دمعةً على جثثكم الممزقة على

صخورِ الناقورة. ولشدّ ما أحسستُ بالقوّة في ساعديّ وبالنبض في دمي.

دمي أحمر، قلتم لي. وقبلكم كنت إخال أن لا لونَ له، لا لونَ لي.

يا شآبيبَ الدم العربي النّافر. . . .

لا وقت للرثاءِ، ولا للمقارنة. فأنتم لا تمهلوننا وقتاً لهذه أو لتلك. واحداً بعدَ الآخر تحشون جيوبكم الفقيرة موتاً وبسمةَ رضى، وتتّجهون نحو الضفائرِالمحتلّة تذكّروننا أنّنا لا نـزالُ محتلين، مقهـورين، لكنّا لا ننى نتنفّسُ فيكم حريّتنا التي لم نعـرفها قطّ، وحيـاتنا التي لم نَحْيَهـا بعد. تـزيحون عن أعيننـا أسطورة الحياة الآمنة وسط الذلّ اليومي، ووسط النخاسـة في كُلّ موسمِ صيف.

خليل، محمد، عبد الهادي، وعبد الله،

وحـدكم، وحدكم، تصفعـون الوجـوه المستسلمة الخـائنـة وتقـدّمون لنـا وجبةَ الحيـاة اليـوميّـة: لا تـرتيبـات أمنيّـة، لا كونفدرالية، لا تسوية.

يا من تحملون اليوم وإلى الأبد اسمَ غسان كنفاني!

كم يحيا غسّان فيكم، وكم ترنُّ في نفوسكم وآذاننا الخجلى عبارَتُه الصافية: «إنّه زمنُ الاشتِباك!».

فلتتشابك أيديكم، فلسطينيين وسوريين ولبنانيـين وأردنيين وعراقيين وخليجيـين وسعوديـين ومغاربـة وجزائـريين ويمنيـين وتونسيين وليبيـين، ولتشتبكوا مـع الغاصب، ولتسقـونا زهـراً نضراً على الدوام.

. . ولا وقتَ للرثـاء. . لا وقتَ للمقـارنـة. إنّـه زمن الاشتباك. . وهل يُخطىء الشهداء؟

سماح إدريس